كلمة حول عمله:

فرنسوا بونجان

المؤرخ الفرنسي الذي يدافع عن الشرق

بقلم الأستاذ إيزاك موسى شموش [حلب]

أريد اليوم أن أعرفك بشخصية فذة ؛ هي من الشخصيات البارزة في الأدب الفرنسي الحديث ؛ وأريد قبل ذلك أن أعلمك بأنها أخذت بجمال الشرق وسحره ، كما أخذ غيرها من أعلام الأدب في أوروبا ، فأوقفت نفسها ، بما أوتيت من بلاغة وبيان ، للدفاع عن الشرق والشرقيين !

ويعز علي كثيراً أن تكون بحاجة إلى من يعرفك بتلك العبقرية اللامعة ، وقد أقامت في القطر المصري بضع سنوات ، وأقامت مثلها في القطر السوري الشقيق ، دارسة باحثة ، لتضع عنهما مؤلفات ، يخلدها الزمان في ما خلد من الآثار والتصانيف .

ويروقك - كما يروقني - أن نسمعها تتحدث عن الشرق ، والشرق العربي بصورة خاصة ، فتنتصت إلى ربيب « السين » يشيد بذكر « النيل » ويتغنى بـ « برديه » ؛ فلا يبدي « النيل » ولا يعيد ، ولا يلي « برديه » ولا يجيب !

ويريدون بعد ذلك أن نقرع على أن في البلادين صحافة ، وصحافة أدبية ، تكرم الأدب ، وتحتفي بأعلامه !

* * *

« فرانسوا بونجان » !

عرفته للمرة الأولى ، يوم أصدر كتابه القيم عن « الأزهر » ، فأسرعت إلى المكتب أطلبه لأتمكن من قراءته ، قبل أن تطلع الصحافة المصرية بنقدها وتقريظها ، فأتممته وانتظرت . ومن ثم أعدته بلهف وشوق ، وانتظرت ، وما لبثت أنتظر حتى اليوم . . . . . .

وعرفته للمرة الثانية ، يوم فاجأ المؤرخين والمفكرين ، بمؤلفه الثمين عن « المنصور » ، وأخذت على نفسي مراقبة الصحف العربية في مصر وغير مصر ، لعلي أعثر في إحداها على كلمة تنصف الكاتب ، فرت الأيام ، ثم مرت الشهور ، و « المنصور » على ما هو عليه من قيمة أدبية وتاريخية ، لا يقوى على تحريك قلم من تلك الأقلام . . . . الكفيفة !

وعرفته للمرة الثالثة ، يوم استلفت الأنظار بكتابه عن « شيخ عبده المصري » فوثقت أن سيثير هذا المؤلف حوله عاصفة من النقد ، تنجلي عن تخليد اسم مؤلفه ، ورفعه إلى

مصاف كتاب الدرجة الأولى فى الأدب الفرنسى الحديث .

ولكن كتاب أرض الفراعنة ، لبثوا صامتين ، كأهرامات الجيزة أو أبى الهول !

ولكن أدباء العالم العربى ، وجوا ، وتقلصوا ، ... وتلاشوا . . . . .

* * *

إلا أن مثل هذا الأثر الجليل ، لا تمر به صحافة فرنسا الأدبية ، دون أن تشغل حقولها بالتحدث عنه ، وعن واضعه أسابيع وأسابيع ، فلتعهد إلى نقادها بدرس « شيخ عبده المصرى » ، ولتنشر عن هذه الأبحاث المقدمات الضافية ، ولتملل القراء باطلاعهم على إحدى نفائس الأدب ، وليتسابق الكتاب إلى ميدان النقد ، وليبد كل منهم الرأى الذى يكونه عن هذه التحفة النادرة لنفسه وبنفسه ، فسيرى أنه لم يك الوحيد ، فى مايظهره من إعجاب ، ويعترف به من تقدير !

ولتجمع الأندية الأدبية فى باريس وغيرها ، على أن « شيخ عبده المصرى » مؤلف قيم يحق لحملة الأقلام على ضفاف «السين» أن يفخروا به وأن ينسجوا على منواله !

ولتتجاوب هذه الأصداء فى جميع أنحاء فرنسا !

ولا تمضى أيام حتى تطلع علينا صحافة باريس الأدبية بنبأ سطرته بأحرف بارزة ، وفى أولى صفحاتها : « شيخ عبده المصرى » ينال جائزة «البعث» (La Renaissance)، وهى إحدى الجوائز الأدبية الكبرى ، التى تمنح كل عام لأفضل كتاب أدبى يوضع باللغة الفرنسية !

جائزة البعث !

ومصر ؟

وسوريا ؟

والعراق ؟

وفلسطين ؟

والبلاد العربية ؟

. . . . صدقت فيها سورة الكهف !!!

* * *

الغرب يكرم نصير الشرق ! والشرق عنه فى غفلة !

عجيبة نضيفها إلى «قائمة» العجائب ، التى تطول وتطول ، كل يوم ، وكل ساعة !

وليتجرأ أحد بعد اليوم أن يزعم ، بأن فى الشرق صحافة ، وأن فى الشرق كتاباً ، وأن فى الشرق قراء !

وليتجرأ أحد على ذكر الجمعيات الأدبية التي نسمع عنها في الشرق ، ولا نرى لها أثراً عند اللزوم !

لندع ذلك جانباً ، فقد يكون مما يزعج « فرنسوا بونجان » أن يبصرنا نحرض الناس على إنصافه وتقديره ، ونحن أحرص الناس على رضاه ؛ ولنرهف أسماعنا إليه ، وهو يحدثنا عن الشرق ، وعن رسالته :

ـ الشرق في يقظة روحية ، لما تتضح أكمامها بعد ! فأمهلوه !

واسمعه يصرح برزانة وتفكير :

ـ إني أعتقد أن للشرق رسالة سامية ، وأعتقد فوق ذلك أن رسالة الشرق خير الرسالات ، لأنها بالسعادة تبشر ، وبالروح تهتدي !

وسيؤدي الشرق رسالته ، يوم «تثبت» أجنحته ، وليس هذا العهد ببعيد !

* * *

وتكاد تحسبه ، وهو يتحدث عن هذه الرسالة ، رسولا ينبئك عما ستتمخض به الأيام بعد بضع سنوات ، فهو يحدد لك ـ على وجه التقريب ـ العهد الجديد ، الذي ستدخله البلاد العربية ، ويسير إليك بأسماء الذين اعتمدتهم العناية الالهية ، ليقوموا بتأدية هذه الرسالة على أتم الوجوه (وأكثرهم من أدباء القاهرة).

* * *

وأذكر أني التقيت به مرة ، فتحدث إلي عن موقف حملة الأقلام في الشرق من تآليفه ، حديثاً مشبعاً بالحكمة والروية ، فهو لا يأخذ على أدباء العربية « جمودهم » نحوه . إذ يعتقد : « أن لهم من المسائل الهامة ما يشغلهم عن معالجة كتب توضع بلغة أجنبية ، ربما صعب عليهم الاطلاع عليها » !

ولا أكتمك أني لم أفهم حتى هذه الساعة ، ما أراد أن يقول بهذه الجملة . وقد يكون قالها «متبكماً» ، وقد يكون قالها عن سلامة نية ، وصفاء قلب ، ولكني أذكر أنه أردفها بقوله :

ـ نحن لا نكتب لهذا الجيل . . . . إنما نكتب للأجيال المقبلة !

[حلب] ايزاك موسى شموش

المعرفة في تونس

تطلب « المعرفة » في تونس من المكتبة العلمية لصاحبيها ووكيلينا : السيد محمد الأمين والسيد طاهر ، بنهج الكتبية رقم ١٢ .

وتطلب أيضاً من مكتبة الاستقامة لصاحبها السيد محمد بن الحاج صالح التميمي .